الفصل السادس

المثل الشعبى

« ان المثل حصيلة تجارة مفلسة »

سيباستيان فرانك

ربما كان المثل الشعبى والنكتة أكثر الانواع الادبية الشعبية جريانا على الالسن • وقد يتصور البعض أن المثل الشعبى ليس فى حاجة الى تعريف ، ولكننا حينما نتساءل عن الفرق بين تلك العبارة المشهورة « زوبعة فى فنجان » ، وقول المتنبى « مصائب قوم عند قوم فوائد » ، ثم بينهما وبين الامثال الشعبية الاكثر انتشارا بين طبقات الشعب مثل « بيت النتاش ما يعلاش » أو مثل « مال تجيبه الريح تاخذه الزوابع » ، فانه يتعذر علينا حينئذ أن نفرق بينها ؛ لانها — كما تبدو — تنتمى كلها الى نوع أدبى واحد ، وهو تلك الاقوال المأثورة التى تلخص تجربة أو فكرة فلسفية • على أنه لا يخفى على القارىء أن هناك فرقا وان يكن طفيفا • ومن ثم فانه يتحتم علينا أن نعرف المثل تعريفا دقيقا ، وأن نبحث طبيعته الشعبية وخصائصه • حتى يتسنى لنا أن نقارن بينه وبين سائر الاقوال المشهورة مقارنة علمية واضحة •

وربما كانت الامثال الشعبية أكثر الانواع الادبية الشعبية التى أولاها الدارسون اهتمامهم • وربما يرجع ذلك الى سهولة جمعها وتصنيفها • وقديما عنى العرب بجمع الامثال ؛ فكلنا نعرف كتاب الامثال للميدانى الذى خصص فيه فصلا لامثال المولدين ، وكذلك كتاب الفاخر لابن عاصم الكوفى ، الى غير ذلك • كما أن منهم من اهتم بتدوين الامثال الشعبية مثل الابشيهى الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، وذلك فى كتابة المستطرف فى كل فن مستظرف •

أما فى العصر الحديث فقد اهتم كل بلد عربى بجمع أمثاله ، وعلى ذلك فقد أصبحنا نمتلك مؤلفات فى أمثال الجزيرة العربية وأمثال نجد

الموصل وأمثال بغداد الى غير ذلك • أما فى مصر فقد دون الاستاذ أحمد تيمور الامثال العامية فى كتابة « الامثال العاميـــة » ، كما دون الاستاذ أمحد أمين جملة هائلة من الامثـــال فى « قاموس العـــادات والتقاليد والتعابير المصرية » • كما ألفت السيدة فائقة حسين راغب كتابا فى الامثال عنوانه : « حدائق الامثال العامية » •

ومعنى هذا أننا أصبحنا نمتلك مادة مدونة وافرة من الامثـــال العربية • وقد حاول بعض الذين حرصوا على تدوين الامثال أن يعرفوا المثل فى تقديمهم لكتبهم أو لمجموعة أمثالهم • ومن ذلك ما ذكره الاستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبى فى تقديمة لكتاب الامثال البغدادية للشيخ جلال الحنفى (١) • يقول الاستاذ محمد رضا : « الامثال فى كل قـــوم خلاصة تجاربهم ومحصول خبرتهم ، وهى أقوال تدل على اصابة المحز وتطبيق المفصل • هذا من ناحية المعنى ، أما من ناحية المبنى فـــان المثل الشرود يتميز عن غيره من الكلام بالايجاز ولطف الكتابة وجمال البلاغة • والامثال ضرب من التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال ، ومن هنا تتميز الامثال عن الاقاويل الشعرية » •

واذا حاولنا أن نلخص خصائص المثل الشعبى من خلال هـــذا التعريف فاننا نجدها تنحصر فيما يلى :

أولا : المثل خلاصة التجارب ومحصول الخبرة •

ثانيا : المثل يحتوى على معنى يصيب التجربـــة والفكـــرة فى الصميم •

ثالثا : المثل يتمثل فيه الايجاز وجمال البلاغة • فاذا حاولنا أن نطبق هذه الخصائص على المثل الشعبى ، فاننا نجدها لا تقتصر عليـــه وحده وانما تتعداها الى أشكال أدبية أخرى • فمما لا شـــك فيه أن صنوف الادب جميعها ، الذاتية والشعبية على السواء ، تعد خلاصـــة

---

(١) الشيخ جلال الحنفى : الامثال البغدادية : ص ٢ بغداد ١٩٦٢ •

ومحصول الخبرة • كما أن الايجاز وجمال البلاغة هما من خصائص الحكم المأثورة كذلك . كما يمكن أن يكونا من خصائص النكتة الشعبية والفردية • وعلى هذا فالتعريف لم يقتصر على خصائص المثل الخاصة به وحده •

وبالمثل عرف الاستاذ أحمد أمين الامثال الشعبية بأنها « نوع من أنواع الادب يمتاز بايجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكتابة • ولا تكاد تخلو منها أمة من الامم • ومزية الامثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب (١) » •

وهنا نجد أن الاستاذ أحمد أمين أغفل ذكر التجربة التى يعد المثل حصيلة لها • ولكنه أضاف خصيصه لم يذكرها الاستاذ محمد رضا وهى شعبية المثل • وفيما عدا ذلك فهو يتفق مع الاستاذ رضا فى الخصائص التى ذكرناها • وربما لم يكن هدف الكاتبين تعريف المثل تعريفا علميا دقيقا • على أننا نقدم تعريفا يشمل خصائص المثل الشعبى الخاصة به وحده ، وهو تعريف الاستاذ « فريد ريك زايلر » ، وذلك فى مقدمة كتابة القيم « علم الامثال الالمانية » الذى نشره عام ١٩٢٣ • ويعرف زايلر المثل الشعبى بأنه « القول الجارى على ألسنة الشعب ، الذى يتميز بطابع تعليمى ، وشكل أدبى مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة (٢) » •

ويمكننا أن نلخص خصائص المثل عند زايلر فيما يلى :

١ ــ أنه ذو طابع شعبى •
٢ ــ ذو طابع تعليمى •
٣ ــ ذو شكل أدبى مكتمل •
٤ ــ يسمو عن الكلام المألوف رغم أنه يعيش فى أفواه الشعب •

---

١ احمد امين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية : ص ٦١ القاهرة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٣ •

Andre Jolles : Einfache Formen, S. 150.

ولما رأى زايلر أن مفهوم الشعبية ربما كان مبهما بعض الشيء فقد أخذ يوضحه من خلال مغزى المثل من ناحية ومن خلال كيفية انتشاره بين طبقات الشعب من ناحية أخرى • والمثل الشعبى — من وجهة نظره — لابد أن يحتوى على فلسفة ليست بالعميقة ، مصوغة فى أسلوب شعبى ، بحيث يدركها الشعب بأسرة ويرددها • وعلى ذلك فان عبارة « زوبعة فى فنجان » تخرج من دائرة المثل الشعبى • وبالمثل قول المتنبى « فان الخمر معنى ليس فى العنب » ، لان مثل هذه الاقوال المشهورة تحتوى على فلسفة أعمق من أن يدركها الشعب ، كما أن هذه الفلسفة مصوغة فى أسلوب أدبى رفيع •

هذا من ناحية مغزى المثل • أما من ناحيه خلقة وانتشاره فقد دعا زايلر بشدة الى وجوب احترام فكرة الفردية فى خلق المثل الشعبى ، معارضا فى ذلك كل المعارضة الفكرة السائدة التى افترضت مساهمة الشعب بوصفة وحدة فى خلق نتاجه الادبى • فالامثال الشعبية والاغنية الشعبية ، والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية وفقا للرأى الاخير ترجع أصولها الخفية الى ما يعيش فى قرارة روح الشعب من احساسات واهتمامات روحية جمعية • أما من وجهة نظر زايلر فان الشعب لا يستطيع ى— بوصفة كلا — أن يخلق شكلا أدبيا مكتملا بأى حال من الأحوال • وانما يعتمد كل خلق وكل ابتكار واكتشاف على شخصية مفردة • ولابد أن كل مثل قد نطق به فرد فى زمان معين ومكان معين • فاذا مس المثل حس المستمعين له ، فهو حينئذ ينتشر بينهم ، وكأنه عبارة ذات أجنحة • وعندئذ يتعرض المثل للتحوير والتهذيب حتى يوضع فى قالبه القانونى بوصفه مثلا شعبيا •

فالمثل اذن خلق فردى فيما يراه زايلر • وهو ينتشر بين أفراد الشعب قبل تحويره وتهذيبه ، وقبل أن يتخذ شكله الادبى الخاص به • على أن زايلر وان كان على حق فى مساهمة الفرد والجماعة فى خلق العمل الادبى الشعبى ، فان المثل — من وجهة نظرنا — لا يصبح مثلا ، ولا يصبح عبارة ذات أجنحة ، الا فى المرحلة الثانية لانتقاله . أى عندما يساهم الشعب فى وضعه فى قالبه الخاص به •

ثم يمضى زايلر فيشرح طبقات المثل التى تتلاءم مع طبقات الشعب،

فهناك أمثال الطبقة الدنيا ، وأمثال الطبقة المتوسطة ، وأمثال طبقة المفكرين • ويرى زايلر أن المثل الشعبى الحقيقى يعيش بين الطبقتين الاوليين ، أما الطبقة الثالثة فلا يعيش بينها المثل الشعبى بوفرة ، فى حين تكثر بينها الاقوال المأثورة التى رواها التاريخ وضاع اسم قائلها ، أو تلك التى ما زال تحتفظ باسم قائلها ، كأمثال المتنبى على سبيل المثال • على أن الطبقتين الاوليين تنطويان على جماعات صغيرة تكون كل جماعة منها عالما خاصا ، فهناك جماعة العمال وجماعة الموظفين وجماعة الطلبة الى غير ذلك • ويرى زايلر أن هناك أمثلة شعبية عاشت بين جماعات بعينها ، وما تزال تحمل سمة هذه الجماعة • فالمثل الشعبى الذى يقول : « باب النجار مخلع » نبع من بين طبقة النجارين • وبالمثل المثل القائل : « اللى يجاور الحداد ينكوى بناره » فقد نبع من طبقة الحدادين • وقد تتكرر الفكرة فى مثلين يختلفان تماما فى التعبير : « اطرق الحديد اذا رأيته متوهجا » والآخر : « اذا ابتسمت لك الفرصة فقبلها » • ويرى زايلر أن المثل الاول نشأ بين جماعة الحدادين ، والآخر بين جماعة المحبين •

ولا شك أن تقسيم زايلر للمثل وفقا لطبقات الشعب وجماعة كل طبقة ، فكرة طريفة الى حد كبير • على أن زايلر نفسه لاحظ أن أمثال الطبقة المتوسطة — وهى تلك الامثال التى غالبا ما تعبر عن تجارب انسانية — هى أكثر الامثال وفرة وانتشارا ، لا بين الطبقة المتوسطة فحسب ، بل بين الطبقتين الاخريين كذلك • ومعنى هذا أن المثل وان نشأ بين جماعة بعينها فانه سرعان ما يصبح ملكا للشعب بأسره • ألسنا جميعا نذكر فى كل وقت مثل : « باب النجار مخلع » وان يكن هذا المثل قد نشأ فيما يراه زايلر بين جماعة النجارين ؟

على أننا نتساءل بعد ذلك عن سر استحواذ المثل على مثل هذه الشعبية ، وعن سبب استخدامنا جميعا للامثال فى مناسبات خاصة • وسبب هذا يرجع فيما نراه الى طبيعة حياتنا التى نعيشها • فاذا نحن تأملنا الحياة بوصفها صنوفا شتى من المدركات والاحوال المعاشة ، فاننا نلاحظ أن هذه المدركات والاحوال تنتمى الى ما نسميه بالتجربة •

وعلى الرغم من أن هذه التجارب يتكرر حدوثها كل يوم فانها تظل وحدات متنوعة ، وتظل كل تجربة تدرك فى كل مرة فى حد ذاتها ، كما أن قيمتها تعيش فيها وحدها . فاذا حاولنا أن نخضع هذه التجارب لاحكام عامة ثابتة ، فاننا لا نستطيع أن نفعل ذلك . ذلك أن تجاربنا فى الحياة قد تتفق فى نتائجها ، وقد يتناقض بعض هذه النتائج مع بعضها الآخر تماما . وقد تعبر هذه التجارب عن النظام الكامل فى حياتنا ، وقد تعبر عن أحوال عالمنا الذى تسير فيه الامور على غير هدى . فمثل « ابن الوز عوام » يعبر عن مدرك من مدركات الحياة ، يصح أن يصبح قاعدة ، ولكننا نفاجأ بمثل آخر يناقضه تماما وهو « باب النجار مخلع » فاذا بالمثلين يقف كل منهما على حدة ليعبر عن تجربة مفردة . وكل هذا ان دل على شىء ، فانما يدل على أن عالمنا ليس نظاما كونيا يخضع لقوانين محددة ، وانما هو عالم الغرائب ، عالم تجريبى اختبارى .

ولما كانت تجارب الانسان تشغله الى حد كبير ، فان الانسان لا يعيش فى عالمه الكبير ، بقدر ما يعيش فى عوالمه الصغيرة ، أى فى تجاربه . وكلما عاش الانسان فى هذه التجارب وأحس بوقعها على نفسه ، كان أشد ميلا للتعبير عنها وعن نتائجها . فقد يحدث أن يفشل فى أمرما ، كان يتوقع نجاحه فيه . فاذا شاء هذا الشخص أن يصف سوء مصيره وعجزه لشخص آخر يدرك موقفه تماما ، فانه يعبر عن ذلك بكلمة « حظ ! » . فاذا حدث أن وصل شخص الى نتيجة موفقة فى مسألة ما ، لم تخطر له على بال ، فانه يعبر عن ذلك كذلك ، وان يكن بنغمة أخرى « حظ ! » .

وهنا نلاحظ أن الشخص لم يحكم حكما نقديا على موقفه ، بحيث يقول على سبيل المثال : لو أننى تصرفت تصرفا آخر ، لحدث كذا أو كذا ، ولكنه يبتعد عن جوهر تجربته ، كما يبتعد عن مسلكه ازاء هذه التجربة ، ولا يعتبر الا عن نتيجتها ووقعها على نفسه . وربما قربنا هذا المثال من الموقف الذى يعيشه الانسان حينما ينطلق لسانه بالمثل .

ومن المحتمل أن يحل مثل شعبى محل كلمة « حظ » ، وحينئذ

يكون التعبير عن نتيجة التجربة أكثر وضوحا .

وهـكذا يعيش المثل فى الحياة وفى عالم الأدب ، وذلك اذا كان للتجربه فى نفوسنا مثل هذا الوقع . واذا تحدثنا عنها بمثل هـذه الطريقة .

والحديث عن عالم التجربة الذاتية ، التى تدعو الى خلق المثل ، يجرنا الى الحديث عن الخاصيه الثانية للمثل فى تعريف زايلر ، وهـى ان المثل ذو طابع تعليمى . فهل يمكن أن يكون المثل ذا طابـع تعليمى ونحن ننطق به خاتمة تجاربنا ؟ أن المثل حصيلة تجارة مفلسة كما يقول « سيباستيان فرانك » . واذا كان المثل ذا طابع تعليمى ، فمعنى هـذا أنه يكون بداية تجاربنا ، ويكون له أثر فى صقلها . ولكن الذى يحدث غير ذلك ، فالتجربة تتم كما يحلو لها . وفى نهايتها ينطلق لساننا بمثـل يلخص نتيجتها . فاذا قلنا على على سبيل المثال : « أردب ما هو لك ، ما تحضر كيله .. تتغفر دقنك وتتعب فى شيله » . فنحن انمـا نستشهد به أن بعد أن نتدخل فى أمر لا يعنينا ، فيحيينا من الأذى ما كنا فى غنى عنه لو أننا تركنا هذا الأمر لأصحابه . ولاشك أن هناك فرقا بين هـذا المثل الشعبى ، وبين قولنا بصيغة الأمر : لا تتدخل فيما لا يعنيك . ان الصيغة الثانية تنظر الى المستقبـل وتهـدف الى غرض تعليمى .

ولعل الطابع غير التعليمى فى المثل . يرفع به الى مستوى أدبى غنى لم كن ليصل اليه لو أنه كان يهدف الى غرض تعليمى صريـح . فالتعبير عن خاتمة التجربة معناه رجوع بها الى الوراء حتى بدايتها ، أى أننا نعيشها مرة أخرى . ولا تختلف التجربة فى جوهرها اذا عبر عنهـا فى شـكل قصـة أو قصـيدة أو اذا عبـر عنهـا بمثل . فقـد نقابل شخصـا فى حياتنا يجذبنا بشـكله وتحركاته ، ويحيط نفسه بهالة من الفخامة . فاذا ما عاشرناه ، تبين لنا أننا أمـام نموذج بشرى تافه لا قيمة له . هذه التجربة التى نعيشها قـد نعبر عنها فى شكل قصصى أو مسرحى ، وقد نعبر عن جوهر حقيقتها فنقول : « البطيخة القرعة لبها كثير » .

فالمثل قول قصير مشبع بالذكاء والحكمة . ولسنا نبالغ اذا قلنا

أن كل مثل يصلح أن يكون موضوعـا لعمل أدبى كبير ، اذا استطاع الكاتب أن يتخذ من المثل بداية لعمله فيعيش تجربة المثل ، ويعبر عنها تعبيرا تحليليا دقيقا .

على أن الأمثال اذا كانت لا تهدف الى غرض تعليمى ، فانهـا تهدف من خلال تلخيصها للتجارب الفردية الى نقـد الحيـاة . وكثيرا ما يشعرنا المثل بنقص فى عالم الأخلاق . وليس هـذا سوى انعكاس لمـا يسود عالمنا التجريبى من عيوب أخلاقية . ولا يسعنا سوى أن نقدم بعض أمثالنا الضاحكة التى تعرض نماذج من حياتنا مليئة بالنقـد والسخرية . فهناك المثل الذى يتندر على تلك التى لا تتأنق الا خارج بيتها فيقول : « بره ورده وجوه قرده » . وهناك المثل الذى يسخر من ذلك الذى يتدخل فيما لا يحسنه فيقول « أخرس وعامل قاضى » . وتقول الأمثال فى معان أخرى : « البطيخة القرعة لبهـا كثير » ، و « لمـا يشبع الحمار يبعزق عليقه » ، « النصاب ياخذ من الحافى نعله » . بل ان المثل قـد يتعجب من اختلاف النماذج الخلقية فيقول : « خلق ناس وتحفهم ، وكبب ناس وحدفهم » .

فاذا فرغنا من الكلام عن ماهية المثل وعن مجـال الاهتمام الروحى الذى يدعو الى خلقه ، فاننا ننتهى الى الكـلام عن الصيغة اللغوية للمثل الشعبى . وقـد سبق أن أشرنا الى رأى زايلر فى وجوب افتراض الأصل الفردى فى خلق المثل . ويتسم هـذا الفرد من وجهة نظره بطبيعه المشرقة ، وبقدرته على اصابة الهدف بتعبير فريد . ثم يتغير المثل ويتحور حتى يتخذ شكلا محددا ، فينتقل بذلك من الملـكية الخاصة الى الملكية العامة . أما كيف وأين يحدث ذلك ، فهذا هـو الأمر الذى سيظل مجهولا . فاذا قلنا ان كل مثل لا بد أنه نطق بـه فى مكان ما وزمان ما ، فاننا نستطيع أن نقول كذلك أن المثل الذى أصبح لـه شكل لغوى ثابت ، لا بـد أنه نطق به كذلك فى زمان ما ومكان ما .

وهنا نعود الى بداية الحديث لنحدد الفرق بين الأقوال المأثورة عن الأدباء والحكماء وبين المثل الشعبى . فالأقوال المأثورة قد نطق بها أصحابها كاملة ، ولم يعترها تغيير بعد ذلك . ويستوى فى ذلك الكلمات

التى فقدت اسم صاحبها مثل « زوبعة فى فنجان » أو تلك التى مـــا تزال تحمل أسماء أصحابها من الحكماء والبلغاء • على أننا اذا شئنا أن نحـــدد الفرق بين الأقوال المأثورة والمثل الشعبى تحديدا كاملا ، فانه يتحتم علينا أن نتعرض لخصائص المثل اللغوية • وهـــذا بدوره يعرضنا للخاصية الثالثة للمثل ــ وفقا لتعريف زايلر ــ وهى أن المثل تركيبة مكتملة لا تقبل زيادة أو نقصانا • فمـــا هى الخصائص الفنية لتلـــك التركيبة المكتملة ؟

وتتمثل أول خاصية فنية فى فن الكلمة التى يستخدمها المثل • ويمكننـــا أن نستشهد فى هـــذا المجال بمثل « الجـــار ولو جار » • فاذا حاولنا أن نبين وضع كلمة الجـــار من الناحية النحوية ، فاننا نجـــدها تحتمل ــ من وجهة نظر النحويين ــ تأويلات مختلفة • فقـــد تكون منصوبة على التخصيص ، وقـــد تكون مفعولا به لفعل وفاعل محذوفين ، وقد تكون مبتدأ لخبر محذوف وهـــكذا • على أن فن الكلمة هنـــا يبتعد عن كل هذه التأويلات التى من شأنها أن تقلل من قيمة الكلمة الفنية • فكلمة الجـــار هنـــا تقف بمفردها محملة بمعان كثيره دون أن تكون فى حاجة الى أى تأويل من التأويلات • وبالمثل قولنا : « زبال وفى ايـــده وردة » ، فلو حاولنا أن نجعل كلمة زبال خبرا لمبتدأ محذوف مثلا أى « هو زبـــال » لفقد المثل كثيرا من معناه • وانما تقف كلمة زبال وحدها هكذا وقـــد حملت من المعانى ما تعجز الكلمات الكثيرة عن بيانه •

وهكذا نستطيع ان نقول ان الخاصية الأولى للمثل هى استخدامه للألفاظ استخداما فنيا يبتعد عن كل تحديد لغوى • وفى وسع هـــذه الألفاظ أن تربط الأفكار ربطا قويا متماسكا •

ومن الكلمة وفن الـــكامة نصل الى التركيب • والمثل لا يعرف التركيب الموحد الذى يعرض الفكرة عرضا مسلسلا ، وانما يقدم المثل لقطات متنوعة من التجربة • ومن خلال هذه اللقطات المتنوعة يبـــرز المعنى • ومثال ذلك « وانت مالك •• خليك على البر •• ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه » • ومثال ذلك « أردب ما هـــو لك ، ما تحضر كيله•• تتعفر دقنك وتتعب فى شيله » • فهذه لقطـــات سريعة متباعـــدة من

التجربة الكاملة تعبر عنها الجمل القصيرة دون تسلسل فى التركيب .

وغالبـــا ما يحتوى المثل على الجمل المتعارضة التى تصـــــور المفارقات فى الحياة . « فى الوش مراية وفى القفا سلاية » . ويسخر مثل آخر بآراء النساء وتفكيرهن ، فينصح الرجال بمثل هذا الأسلوب المتعارض فيقول : « شاوروهم واخلفوا شورهم » .

على أن هذا التنوع والتعارض فى الأسلوب ليس سوى انعكاس لعالم الاهتمام الروحى الشعبى الذى يدعو الى خلق لمثل . ففى هـــذا العالم تعيش تجارب الناس بوصفها وحدات متنوعة منفصلة ، فينجم عن ذلك التعبير عنها فى شكل لغوى تنفصل أجزاؤه وتتنوع وتتعارض وان اتحد كل هذا فى كل يعبر عن تجربة الانسان فى هذا العـــالم التجريبى .

وقـــد لا يكون المثل جمـــلا متنوعة أو متعارضة ، وانما يكون تكوينا منطقيا يربط النتيجة بالمقدمة . وهذه الامثال تتـــكون من جملة فرعية تبتدىء بكلمة « الـــلى » وجملة أخرى رئيسية : « الـــلى لـــه ظهر ما ينضريش على بطنه » ، واللى ما لهوش ايد ، ما لهوش لكمية » .

وأبرز ما يتميز به المثل حركته الايقاعية التى تنجم عن استخدام الوزن والايقـــاع . واذا كان الوزن والايقاع فى الشعر من شـــأنه أن يعين على عرض الصور اللغوية المتماسكة عرضا يستمر مع الحركـــة النفسية ، فان الوزن والايقاع فى المثل من شأنه أن يصنع الشكل اللغوى المقفل ، فما ان تنتهى العبارتان المتحدتان على وجه التقريب فى الوزن والايقاع حتى ينتهى المثل . مثال ذلك : « قصقصى طيرك ، لايلوف بعير» « العبد فى التفكير ، والرب فى التدبير » ، « حبيبك يمضغ لك الزلط ، وعدوك يتمنى لك الغلط » .

وقـــد يستعين المثل بأسلوب التكرار فضلا عن الوزن والايقاع ، وذلك لزيادة عنصر التأثير . ومثال ذلك : « حبيب ماله ، حبيب ماله ، وعـــدو ماله ، عـــدو ماله » .

وقـــد يكون للمثل طابع الحكاية . ومثل هـــذه الأمثال تستخدم

كلمة القول على سبيل الحكاية • « قالوا للجمل زمر ، قال : لا فم مضموم ولا صوابع مفسرة » ، « ضربوا الأعور على عينه ، قال خسرانه خسرانه » •

هذه أهم خصائص أسلوب المثل الشعبى كما حاولنا أن نحصيها • فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الصورة فى المثل ، فاننا نلاحظ أن المثل الشعبى كثيرا ما يحاول تجسيد الفكرة من خلال الصورة • ونحن نستشهد هنا بمثلين سبق أن استشهدنا بهما فى مجال آخر وهما : « البطيخة القرعة لبها كتير » ، « لما يشبع الحمار بيعزق عليقه » • ونلاحظ هنا أن المثل لا يهدف بحال من الأحوال الى أن يشبه المظاهر الخادعة باللب الكثير وحقيقة الانسان التافهة « بالبطيخة القرعة » كما أنه لا يهدف الى تشبيه الشخص الذى شبع بعد جوع بالحمار واسرافه بعد حرصه « ببعزقة العليق » ، وانما تبرز الحقائق التى يلاحظها الانسان مرارا ، فى اللحظة التى يمعن فيها فى نتيجة تجربته التى عاشها • فاذا هذه الحقائق ينتفى عنها طابع العمومية ، وتكسب طابع التجريد ، وتصبح مثلا •

اننا نعيش جزءا من مصائرنا فى عالم الأمثال • ولعل هذا يفسر لنا استعمالنا الدائم للأمثال ، على عكس الأنواع الشعبية الاخرى مثل الأسطورة والحكاية الشعبية والألغاز وغير ذلك • فالامثال بالنسبة لنا عالم هادىء نركن اليه حينما نود نتجنب التفكير الطويل فى نتائج تجربتنا • ونحن نذكرها بحرفيتها اذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية ، بل اننا نشعر بارتياح لسماعها وان نعيش التجربة التى يلخصها المثل •

وربما أدركنا بعد هذا العرض السريع لخصائص المثل الفرق بين المثل الشعبى وبين الأقوال والحكم المأثورة • والأقوال والحكم المأثورة لاتخضع لهذه الخصائص ، وانما هى أمثلة ذهنية كما قال زايار • فلقد ختم شكبير مسرحية هاملت بقوله : « ان البقية صمت » • وهى حكمة تصل فلسفتها الى أعماق بعيدة • فقد تعنى أن بقية الحياة هى الراحة الأبدية ، وقد تعنى أن هاملت لن يستطيع الكلام بعد مأساته • ومن الممكن أن تعنى كذلك أنه مهما طال

اهتمام الكائنات الفانية بمشكلات الـــكون . فان الصمت يتلو جميع أسئلتها عن الحيـــاة المستقبلة .

على أن الأقوال والحـــكم المأثورة تتفقان مع المثل الشعبى فى كونها ترجع جميعا الى اهتمام روحى واحد ، وهو تلك التجارب الفردية التى يعيشها الناس وتتلخص فى تلك الاقـــوال الموجـــزة الحكيمة . ولذلك فان هذه الأقوال المأثورة تنفصل عن العمل الفنى لتعيش بمفردها أحقابا طويلة .

أما الأمثال العربية القديمة التى روتها كتب الأمثال فهى تنقسم الى نوعين :

النوع الأول وهو تلك الحكم المأثورة عن شعراء العرب وحكمائهم وتحرص كتب الأمثال على أن ترجعها الى قائلها . فمن ذلك القول المأثور « رضيت من الغنيمة بالاياب » . ويذكر كتاب « الفاخر » أن هـــذا القول يرجع الى امرىء القيس ابن حجر ؛ وهو أول من نطق فى بيتـــه :

وقـــد طوفت فى الآفان رضيت من الغنيمة بالايـــاب

أما النوع الآخر من الأمثال فهو ما يشير الى حوادث بعينهـــا ، ويحتفظ بشواهد لهذه الحوادث ، ثم يصبح بعد ذلك أمثالا جارية تنسى مناسباتها الأصلية . ومهمة كتب الأمثال هى شرح هـــذه الامثال من خلال شرحها لمناسباتها الواقعية .

أما النوع الأول فما زلنا نحفظه فى ذاكرتنا ونرويه فى المناسبات المختلفة وهو ينتمى الى الأمثال الذهنية . أما النوع الثانى فهو بعيـــد فى جوهره عن المثل الشعبى والذهنى . فهو لا يشير الى خلاصة تجربة من تجارب الحياة ، وانما يشير الى اتفاق مناسبتين فى تفاصيلهما . ولهـــذا السبب فان هـــذا النوع قـــد أصبح تراثا أدبيا لاتحتفظ بـــه سوى الكتب الأدبية القديمة . فما أبعد هذه الأقوال مثل « وافق شن طبقه » ؛ أو « اقتلونى ومالكا » عن حياتنا وعن تجاربنـــا التى نعيشها .

ولا نود أن ننتهى هنا قبل أن نشير الى ما ذكره الأستاذ أحمد أمين

بصدد مجموعة الأمثال التى ضمنها كتابه فى العادات والتقاليد والتعابير المصرية • والأستاذ أحمد أمين عرف بحسه الشعبى الدقيق ، ومن هنا كانت له لفتات فى المثل الشعبى يحسن أن نشير اليها •

فقد أشار الى الصعوبات التى يصادفها الدارس للأمثال الشعبية • ومن هذه الصعوبات « أن الأمثال لا يعرف قائلها حتى نستطيع أن نعرف من أى وسط نبعت . هل قالها ريفى أو حضرى ، وهل قالها سوقى أو أرستقراطى ؟ والناس عادة يهتمون بقائل الشعر ، فكثير من الشعر يمكننا معرفة قائله . أما المثل فلا ، فقد تقوله عجوز فى بيتها أو فلاحة فى حقلها ، أو صانع فى مصنعه ، ثم ينتشر هذا المثل بين الناس من غير اهتمام بقائله • كما أنه من الصعب تحديد تاريخ المثل فى أى عصر قيل • وقد يكون هذا هاما جدا لأننا كثيرا ما نجد أمثالا متضاربة . فهم يقولون — مثلا — « القرش الأبيض ينفع فى اليوم الاسود » ويقولون « اصرف ما فى الجيب يأتيك فى الغيب » . فهذان مثلان متناقضان ينصح أولهما بالتدبير والثانى بالتبذير • فهل نبعا من وسطين مختلفين أم قيلا فى وقتين أو حالين مختلفين ؟ ومثال قولهم « ابن الوز عوام » وقولهم « باب النجار مخلع » فبين هذين المثلين شبه تناقض • نعم ان بعض الأمثال يمكن معرفة تاريخها بدلائل مختلفة . فقد جمع لنا الأبشيهى فى كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » طائفة من الأمثال العامية المستعملة فى زمنه ، وقد عاش مؤلفه فى القرن الثامن الهجرى • وأحيانا يدل المثل نفسه على التاريخ الذى قيل فيه مثل « آخر خدمة الغز علقة » ، فان المثل يدل على أنه قيل فى مدة حكم الأتراك لمصر ، كما أن بعض الامثال يدل على نوع الوسط الذى نبعت منه مثل « النوتى فى حساب والريس فى حساب » فانه يدل على أنه نبع من وسط المراكبية • ومثل قولهم « أيش عرف الفلاح أكل التفاح » فانه يدل على أنه نبع من وسط الحضريين • ومثل قولهم « اللى مالوش شيخ شيخه الشيطان » ، فانه يدل على أنه نبع من وسط مشايخ الطرق وهكذا • ولكن هذا قليل ، وأكثر الامثال لا يعرف قائلها ولا تاريخها ولا منبعها » (١) •

---

(١) أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ص ٦١ و ٦٢ .

فالكاتب يرى أن جهلنا بالقائل الأول للمثل ، وبالمثل جهلنـــا بزمان نشأته ومكانهـــا ، يعد من الصعوبات التى تعترض الباحـــث فى الأمثال الشعبية • ولعل القارىء قـــد أدرك بعد كل ما ذكرناه فى المثل الشعبى . وبعـــد دراستنا للأنواع الأدبية الشعبية السالفـــــة . أن الخصيصة الاولى للأدب الشعبى هى شعبيته . بمعنى أنـــه ملك للشعب وليس ملكا لفرد • وقد نتساءل : ما الذى يغنمه الباحث من معرفة القائل الأول لكل مثل من الأمثلة الشعبية التى يصل عددها الى الآلاف؟ وهل يمـــكن أن يتعدد القائلون بتعـــدد الآمثال ، ألتى تتشـــابه تمـــاما لدى كل الأمم ؟ هـــل تخفى وراءهـــا مؤلفا واحـــد كذلك ؟ كل هـــذه أسئلة يصعب الاجابة عنهـــا ، بل اننا نرى أنه ليس هناك جدوى من اشتغال الباحث بهـــا ، فالمثل ينشأ من أى مجال فى الحياة ، ثم ينتشر دون اهتمام بقائله ، كما لاحظ الأستاذ أحمد أمين نفسه ذلك •

أما عن تحديد الزمان والمكان اللذين نشأ فيهما المثل فهذا لا فائدة وراءه كذلك . الا اذا أشار المثل نفسه الى زمانه ومكانه • فما دامت هناك حاجة نفسية لاستخدام المثل ، فانه يعيش مع الأجيـــال ، فاذا لـــم تكن هناك ضرورة نفسية لاستخدامه انتهى • فمثل « أن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » ساد فى عصر بصورة واضحة نظرا للاحتياج النفسى للاستشهاد به • وربما قل استعماله بعد ذلك ، وربما يعيش مرة أخرى فيستعمل فى العصر الذى يتلاءم مع مغزاه • وأما ما ذكره الكاتب من أن الأبشيهى قد دون أمثال القرن الثامن ، فهل فى وسع أحـــد أن يؤكد أن الأمثال التى دونها الأبشيهى قـــد نشأت فى ذلك القرن ولم تنشأ قبل ذلك ؟ واذا كان تحديد زمان المثل ومكانه من شأنه أن يفسر التناقض الذى يقع بـــين بعض الأمثال ، تلك التى أشار اليها الأستاذ أحمد أمين . فلعلنـــــا استطعنا أن نفسر ذلك من خلال تفسيرنا لنشأة المثل • فنتائج تجاربنا المتناقضة تتطلب النطق بمثـــل فى مناسبة معينة ، والنطق بنقيضه فى مناسبة مناقضة للأولى • ولعلنا ندرك هـــذا فى حياتنا اليومية . فكم من مناسبة نصادفهـــا تتطلب النطق بمثل « ابن الوز عوام » وكم من مناسبة أخرى تتطلب النطق بمثل « باب النجار مخلع »•

أما الشيء الطريف الذى التفت اليه الأستاذ أحمد أمين فهو تدوين الأمثال المصرية حسب الموضوعات ، على عكس ما فعل بعض الكتاب فى ترتيبها حسب الحروف الأبجدية • وقد دفعه الى ذلك ادراكه أن أمثال كل أمة مصدر مهم جدا للمؤرخ الأخلاقى والاجتماعى • وهو يقول فى ذلك : « فاذا جمعنا مثلا الأمثال المصرية التى قيلت فى المرأة أمكننا أن نعرف منها نظرتهم الى المرأة ، واذا جمعنا الأمثال التى قيلت فى الحاكم أمكننا أن نعرف نظرتهم الى الحاكم ، اذا جمعنا الأمثال المالية أمكننا أن نعرف منها نظرتهم الاقتصادية وهكذا ••• (١)» •

ومن ثم فقد قدم لنا الأستاذ أحمد أمين أمثلة تشير الى علاقة الشعب بالحاكم فى الآزمنة السالفة ، وأخرى تشير الى الحالة التى كانت عليها الحياة الزوجية ، كما قدم مجموعة أخرى تدل على الحالة الاجتماعية والأخلاقية •

والمتصفح للأمثلة التى تعكس علاقة الشعب المصرى بالحكام السالفين ، يشعر بالمرارة التى عاشت فى قلب الشعب ، والتى لم يكن يخفف من حدتها سوى التعبير الشعبى فى أى صورة كانت ، ومن ذلك قوله « الى تشوفه راكب على العصا قول له مبارك الحصان » • « ان كنت فى بلد بيعبدوا الجحش ، حش وادى له » ، « ان كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى » ، « أو أرقص للقرد فى دولته » ، « آخر خدمة الغز علقة » ، « اكمن ابوك سنجق دابر على حل شعرك » •

وهكذا تتلخص صفات الحاكم فى الجهل والغباء والجبروت والظلم ، كما تتلخص علاقة الشعب به فى المداراة والاستكانة والنفاق والصبر على بلواه •

فاذا تصفحنا الأمثلة التى تروى عن الحياة الزوجية فاننا نواجه حقيقة الحياة العائلية فى مصر ولاشك ، وهذه هى بعض الأمثلة فى ذلك : تاخدى جوزى وتغيرى ، ما تخيلى • الأم تعشش والأب يطفش • حطى

---

(١) المرجع السابق ٦١ •

جوزك فوق السطوح ان كان فيه خير ما يروح • يا مآمنة للرجـال يا مآمنة للمية فى الغربال • قالوا خـدوا جوز الخرسه اتكلمت • الراجل ابن الراجل اللى عمره ما يشاور مرة • قعاد الخزانة ولا جواز الندامة• فاتت ابنهـا يعيط وراحت تسكت ابن الجيران • قصقصى طيرك لا يلوف بغيرك • شايل ابنه على كتفه وبيدور عليه • بوس ايد حماتك ولاتبوس ايـد مراتك • جوه قرده وبره ورده •

وربما اتضحت من خلال هذه الأمثلة المظاهر التى كانت تسود الحياة العائلية فى مصر ، وهى خيانة الزوج وتجاهله لزوجته من ناحية ، واهمال الزوجـة لحالها وحرصها فى الوقت نفسه على مراقبة الزوج والاحتفاظ بكافة الطرق من ناحية أخرى • انها حياة تقوم على عدم التفـاهم وعـدم الاستقرار •

أما الامثلة الدالة على الحالة الاجتماعية والاخلاقية فلا حصر لها ، وفى وسعنا أن نستخلص بعض القيم الاجتماعية والاخلاقية من خلال الامثال الشعبية التالية :

١ ــ الاهتمام بالظهر لانه يخفى الجهل والغباء :

زى بعجر أغا ما فيه الا اثنابه • الوش وش حـاج والطبـع ما يتغيرش • غشيم ومتعافى • ضلالى وعامل امـام : وانله حرام • شابت لحاهم والعقل لسه ما جاهم • شخشخ يتلموا عليك • ناموسة وعاملة جاموسة • القفص المزوق ما يطعمش الطير •

٢ ــ خلو الحياة من القيم والاخلاق :

خدوا من فقرهم حطوا على غناهم • عاز الغنى شقفه ، كسر الفقير زيره ، جت الفقير وكسه ، ما أقل تدبيره • غاب القط العب يا فـار • الغايب مالوش نايب • لا انسان ولا حلاوة لسـان • راحت الناس وفضل النسناس • يا حامل هم الناس خليت همك لبن • زى الطبـل ، صوت عالى وجوفه خالى • زى فقرا اليهود ، لا دنيا ولا دين • الدخان القريب يعمى • يأكل ويشرب ووقت الحاجة يهرب • ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه • لما اتفرقت العقول كل واحـد عجبه عقله ، ولما

انفرقت الارزاق ما حدش عجبه رزقه • ما تيجى المصايب الا مـن القرايب • ما تعرجش قدام مكسحين • ما دام رايح كتر من الفضايح • الحيطة الواطية كل الناس تنط عليها • قالـوا للغـراب ليه بتسرق الصابونة ، قال الاذية فى طبع • قالوا للمشنوق غطى رجليك ، قال ان رجعت ابقوا عاتبونى • قالوا يا كنيسة اسلمى ، قالت اللى فى القلب فى القلب • الفار وقع من السقف قال القط اسـم الله عليك • أعمى ويسرق من المفتح • عيوبى لا أراها وعيوب الناس أجرى وراها •

ولما كانت الحياة خالية بهذه الصورة من القيم الاخلاقية فقـد استسلم الفرد الضعيف لليأس واستسلم للقضاء والقدر ، كما أنـه أصبح يعيش حياته ليومه :

من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته • الضحك على الشـفاتير والقلب يصبغ المناديل • الضرب فى الميت حـرام • ياللى بترقص فى الظلام مين حاسس بيك • زى الابرة تكسى الناس وهى عريانة • أقل شىء يرضى الخاطر • أقل موال ينزة صاحبه • يا بانى فى غير ملكك يا مربى فى غير ولدك • النهاردة دنيا وبكرة آخره • ما قدرش على الحمار أتشطر على البردعة • ما يعجبك البيت وترويقة دا اللى جـوه نشفان ريقه • قالوا أبو فصادة بيعجن القشطة برجليه ، قالوا : كان بان عليه •قيراط بخت ولا فدان شطارة • السعد ما هواش بالشطارة •

ولعلنا بذلك نكون قد درسنا المثل الشعبى من كل زواياه ، ولعلنا استطعنا أن نوضح قيمته من ناحية الاهتمام الروحى ومن ناحية قيمته الفنية •

على أنا نود فى نهاية بحثنا فى المثل الشعبى أن نفرق بينه وبين التعبيرات الشعبية الشائعة التى شاء البعض أن يجمع بينهـا وبين الامثال الشعبية ، كما فعل الاستاذ أحمـد تيمور فى كتابـه الامثال

ومن أمثلة هذه التعبيرات : بصلة المحب خروف • بلها واشرب ميتها • عمل البحر طحينة •

ومن الواضح أن هذه التعبيرات تمتلك لبعض الخصائص الفنية للمثل كما سبق أن شرحناها ، ومع ذلك فهى لا تعد أمثالا • فنحن لا نتفوه بها فى نهاية تجربة عشناها ، وانما نتفوه بها على سبيل تأكيد الموقف وتوضيحه • فهى أقرب الى باب الكنايات والتعبيرات الشعبية منها الى باب الامثال • ومن ثم فلا يحق لنا أن نخلط بينها وبين الامثال بأى حال من الاحوال •